وثائق ادبية وتاريخية

بين عادل أرسلان ورشيد رضا

بقلم : احمد الشرباصي

ان الرسائل الاخوانية ذات شأن جليل في تصوير الحياة الادبية ، وتزداد أهميتها اذا كانت لا تقتصر على شؤون ذاتية او ادبية ، بل تضم الى ذلك حديثا عن التاريخ او الوطن او المجتمع . انها حينئذ تصبح وثائق تاريخية هامة من واجب الباحثين ان يرجعوا اليها ويستثبتوها ويستشهدوا بها .

ولقد وفقني الله تعالى للعثور على طائفة من رسائل الشاعر اللبناني والمجاهد العربي الامير عادل ارسلان شفيق امير البيان الامير شكيب ارسلان ، بعث بها منذ وقت طويل الى السيد رشيد رضا صاحب مجلة « المنار » و « تفسير المنار » ، والتلميذ الاول للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده .

وعادل أرسلان أحد أربعة أبناء امراء للامير حمود الارسلاني ، وهم نسيب وشكيب وحسن وعادل ، وقد جاء في كتاب « روض الشقيق » هذه العبارة عن عادل : « الشاعر الجزل الرقيق ، ربيب النعومة وابن الامارة ، ينبعث الى ساحة الجهاد في الثورة السورية ، ويقود المجاهدين ، ويكافح العدو ، وينزل به الويل الاكبر ، ثم لم يزل مرابطا برجاله في الصحراء ، يستعذب ضروب المشاق ، ويستسهل الصعب في سبيل بلاده وأمته » .

وللامير عادل شعر طيب ، نذكر منه على سبيل المثال قطعة من قصيدته التي رثى بها شقيقه الامير نسيب ارسلان :

نفى النوم ما هاج الضمير المناجيا ... أفي الغيب ما أخشى والا فما ليا ؟
هواجس قد اصبحت بعد دبيبها ... أكاد اذا أنصت أسمع ناعيا
اذا تلعات «النبك» لاقت نواظري ... تمثل فيها ضاحك الروض باكيا
وقفت على وادي «السراحين» واجما ... أخالط ليلا بالملمات داجيا
على النخلات الخمس يطفين في الدجى ... يشرن الى المشتاق ألا تلاقيا
تمايل من هوج الرياح ، كأنها ... نوادب يحثين التراب بواكيا
الا ان هولا شد من كل جانب ... وأطبق يستدعي عليّ النواحيا
بلى قد مضى ، والقلب يهفو لذكره ... « نسيب » وخله آهل الربع خاليا
فيا نائيا ، أواه ، لو أن نظرة ... تزودتها من قبل ان صرت نائيا
فديتك لو ترضى المنية فدية ... وهيهات ترضى بي لمثلك فاديا

وبين يدي رسالة مخطوطة من شكيب الى رشيد تاريخها ٢٢ يناير ١٩٢٥ ، وفيها يقول عن شقيقه عادل :

« أخي عادل فيه جميع أوصاف الرجولية والشهامة والاباء مع الذكاء ، لكن عيبت به حتى أقدر ان اغير طبعه الذي هو الانتقاد لكل شيء ، والتشاؤم بكل شيء ، والنعي والنعاب والنعاق بدون انقطاع ، ونبهته الى كون هذا الامر صار عنده مرضا ، ولا أراه يقلع عنه » .

والرسالة الاولى التي عثرت عليها كتبها الامير عادل من « الحوراء » بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٩٢٣ م. وهذا يوافق شهر جمادى الاولى سنة ١٣٤٢ هـ. ، وفي هذه الرسالة التي انشرها مع زميلات لها لاول مرة نجده يتحدث عن سوء الاحوال ، وعن اضطراب الامور لدى اخيه شكيب ، وعن انحطاط رجل لم يذكر اسمه ، والانتداب الذي منيت به فلسطين ـ ردها الله على العرب والمسلمين ـ وعن اثر الانتداب في مصلحة مصر ، كما يشير الى ما قام به « الكماليون » في تركية مما يأسى له ويضيق به ، وهذا هو نص الرسالة :

« سيدي الاستاذ المفضال

حقا ان الذهاب الى مصر وزيارتكم فيها لاسهل بكثير من ارسال رسالة اليكم يكون فيها ما يروي الغليل . لم أزل في مقاساة ما لا يوصف في هذا المحيط ، فكل ما نراه وكل ما نسمع به يدخل الحزن على أبرد القلوب ، وقد حاولت مرارا النجاة من هذا العذاب ، فعاقني عن ذلك اهمال الاخ أمر سكناه ، واختيار الاقامة له ولعائلته ، حتى جاءني منذ ايام كتابه الاخير يقول فيه انه وصل آستانة ، وانها يذهب منها الى مرسين .

فتصور رعاك الله حال من يستبدل وطنه بأطنه ، ومن ترسو به سفينة الاغتراب في مرسين ؟ الا انني اتوقع ان يكون في ذلك فرجا لنا بعد ان تمرسنا هنا بالآفات ... الخ .

الرجل الذي سألتم عنه وعن اخباره هو الان في بحبوحة الرذالة ومعممان قلة الحياء ، وهو في ذلك كل يوم في ازدياد ، وكم قلنا : هذا منتهى ما يستطيع المرء ان يأتي به من الموبقات ، فاذا بنا أضيق خيالا وأقصر نظرا من ان نحيط بما فيه من قوة الضرر متنوعة شاملة ، لا تترك صغيرة ولا كبيرة الا أدركتها ، وأظهرت فيها آثارها ، فهو من هذه الجهة نابغة النوابغ ، وعلى قول بعضهم : عبقري . لانهم زعموا ان العبقري هو من فاق غيره ، وارتفع عن الامثال ، وهذا قد ارتفع في سقوطه عن جميع الساقطين !

وكأنه عرف ان كل الناس أعداء له ولصفاته ، فصار عدوا لهم جميعا ، بعد ان كان عدوا لنفسه قبل غيره ، وهو يعمل فكرته الان في ايصال الاذى الينا بطريقة جهنمية ، وقد بدأ بذلك سرا ، لكن اسراره كلها فضائح ، وسأخبركم بما يكون .

صك الانتداب الجديد الاخير وصل ، ولم تنشره هذه الحكومة ولا حكومة فلسطين ، وهو ينص على اعادة حقوق اليهود التاريخية في فلسطين ، وعلى غير ذلك من الامتيازات والحقوق المسلوبة من غيرهم . وهذه المنطقة معبر عنها بالاراضي الواقعة بين نهر الاردن وحدود فلسطين الشرقية ، والعقبة وما جاورها من اراضي الحجاز داخلة في صك الانتداب ، وهذا أمر يمس مصالح مصر خاصة ، لان الضفة المقابلة هي لها ، وسيكون لهذا الخليج شأن عظيم في المستقبل ، فان شئتم ان ابعث اليكم برسالة مفصلة في هذا الموضوع الذي قتلته درسا فأرجو الايعاز الى الاخ ابي الخيرات ... ان يطلب ذلك مني ، وهذه الرسالة خصوصا في هذه الساعة المتأخرة لا تسع مثل تلك الرسالة .

جاءنا بعض الاصدقاء من مصر ، وفتحوا بحث اصحاب الكمالات ... فسمعوا ما أدهشهم وتركهم خرسا بكما لا صما ، لانهم لا يزالون يسمعون ، وأظن انهم شعروا بضعف حجتهم تجاه قوة المحسوسات الملموسات من الاعمال المنحوسات .

أرجو ان يكون هذا الكتاب لكم وحدكم ، ولا بد ان تجمع الايام بيننا فنسترسل في البحث بما يقتضي من الاسهاب والتطويل .

سفر التدوين الذي أشرتم اليه أهمل عمدا الى حين . والسلام على سيدي الاستاذ وألف تحية .

الحوراء ٢٩ تشرين الثاني سنة ٢٣ عادل »

***

وهذه رسالة ثانية كتبها الامير عادل ارسلان الى السيد محمد رشيد رضا سنة ١٩٢٣ ، ولكننا لا نعرف في أي شهر كانت هذه الرسالة ، لان الامير نسي الشهر ، واكتفى في التاريخ بهذه العبارة : « عمان ـ ٢٩ سنة ٢٣ » . وفي هذه الرسالة يتحدث الامير عن متاعبه بسبب جهاده الوطني ، وعن تنقلات أخيه شكيب ، وعن مكائد بعض الناس له ، وعن الحالة السياسية للقضية العربية في ذلك الوقت ، وما فعلته فرنسة بالعرب ، وهذا هو نص الرسالة :

« عمان ـ ٢٩ سنة ٢٣

سيدي الاستاذ المفضال

أشكر لكم اهتمامكم لامري والسؤال عني ، وقد فاتني ان اكتب لكم بعد سفري وحصولي في هذه العاصمة ، ومن اسباب ذلك المراقبة ، لاننا تلقينا بعض الرسائل مفتوحة وملصوقة بمادة ظاهرة ، وأرسلنا بعض رسائل لم تصل ، وبعد التحقيق ظهر لنا ان هناك امرا ، او قولوا : ارادة سنية ... بمراقبة رسائلنا ، والضمير عائد لبعض اشخاص ممن وقعوا تحت تهمة الوطنية والعياذ بالله !

شكيب كتب لي مرتين بعد رجوعي من مصر ، وقد جاوبته ، ثم جاءتني برقية من نجيب بك يقول فيها ان شكيب قلق علينا ، وقد جاوبته ايضا بأن صحتنا جميعا جيدة ، وهذه هي الحقيقة ، ولكن الاخ لا يفكر بأمر هذه العائلة التي يسأل عنها من حين لآخر ، ويغير مكان اقامته ، دون ان يعرفنا عنوانه الجديد .

أود ان أطلعكم على بعض الحقائق ، وكان من الواجب اطلاعكم عليها قبل الان ، ولكن الفرصة لم تسنح . الركابي اغتنم فرصة سفرنا الى الحجاز ، فأخذ يغري الامير بنا وبغيرنا من الوطنيين ، حتى انه أمر بطرد الشيخ كامل ويحيى صاتي بك والدكتور محمود حمودة بك ، لانهم دخلوا المنطقة بقصد معونة سلطان الاطرش في ثورته على الفرنسيس ، ثم أخذ يصرف ألوف الليرات على جواسيسه وأعضاء حزبه الذي سماه :« حزب أم القرى » تزلفا لملك الحجاز ، وفي لندرة قبل بما لم يقبله احد غيره ، وكانت أفعاله هذه تصادف القبول لاستعداد تلك النفس الى استحسان امثالها ، ولو أدى ذلك الى ضياع القضية والبلاد وأبنائها . وقد دام الاتفاق بينهما الى ان تدخل الوالد في الامر فجرى ما جرى .

ونحن نستغرب ذلك من اركابي ، لانني وأحمد مريود بصورة خاصة نعد أنفسنا أصدقاء له ، ولم نأت بعمل يخالف الصداقة ، رغما عن معرفتنا انه لا يراعيها كثيرا .

هنا الاحوال اوحال ، وكل يوم في ازدياد ، والمنطقة على وشك الافلاس ، والاهالي يتذمرون ، ولا يعقل نجاح حكومة وارداتها مئة وعشرون الف جنيه يصرف الامير منها ثمانين .

وأما الاشاعات التي أذاعها بعض الاذناب والاتباع بشأن امارة فلسطين فلا صحة لها ، وكذلك قولهم ان مسألة سورية تنحل قريبا على تلك اليد البيضاء ! وغاية ما في الامر ان اصحاب الانتدابات كلهم ارتعدت فرائصهم خوفا من اشتداد حركات الاتراك على الحدود ، فأرادوا ان يلفتوا نظر الاهالي الى هذه الجهة ، وان يظهروا للفرنسيس ان حشد قواتهم العسكرية على حدود حلب ممكن ، لان البلاد ستكون ساكتة من هذه الجهة ، والاصح ان الفرنسيس اشترطوا على حلفائهم تسكين هذا القسم الجنوبي من سورية ، ليتمكنوا من حشد قواتهم كلها على حدود الاناضول .

والمفهوم الان ان العصابات التركية قوية جدا في جهات حلب وانطاكية ، وان جيشا تركيا كبيرا وصل الى ولاية أطنة ، ويقال ان الخطة هي تخويف الفرنسيس ، لا مهاجمتهم فعلا ، ولهذا كله لا يكون موافقا ان نقبل بالتساهل مع الفرنسيين الان بحجة قرب الخطر التركي كما يقول رضا باشا .

وعلى كل حال يجب افهام الامة ان عليها السعي لنيل استقلالها بدون أصنام تعبدها قبل ذلك وبعده ، وهذا ما يقوم به نجباء شبابنا ، فنرجو ان يكون تأثير الدعوة التي قام بها البعض في مصر بين اخواننا السوريين ـ سواء من جماعة الركابي او جماعة الاخر ـ صفرا .

وفي الختام ارجو اهداء سلامي لجميع الاخوان ، وان امرتم بجواب فليكن بواسطة الاستاذ القصاب في حيفا ، وأقدم لكم أوفر الاحترام سيدي .

عادل »

***

وهذه رسالة ثالثة ، اكتفى عادل في تاريخها بما يلي : « عمان ـ ٢٦ حزيران » ، ولكنا لا ندري من اي سنة هذا الشهر ، وان كان يظهر ان هذه الرسالة غير بعيدة في الزمن عن الرسالة التي سبقتها ، وهذا هو نص الرسالة :

« سيدي الاستاذ المفضال

تأخرت رسائلي لاسباب كثيرة ، أهمها اني حرت كيف أصف لكم ما نحن فيه . تذكرون كيف كنا نتصور الخير لهذه المنطقة ، وكيف كنا نعدها او نحاول اعدادها لما هو اعظم وأولى بالاهتمام ، واما الحقيقة التي وجدناها امامنا هنا فقد أزالت ذلك الغشاء ، ورفعت ذلك الغطاء ، عن جميع الاحلام والاوهام ، وهذا شأن من لم يكن فارق الحذر ونسي العبر ، فكيف حال من كان في عالم الخيال تجاه هذه « الظهورات » الجديدة ؟..

القوم أبعد عن السعي لتحقيق آمالنا من ان يكون لهم سعي حقيقي اليها ، وما قيل من العبارات في موضوع تهيئة الحكم الوطني لسورية لم يتحقق منه شيء سوى الاجتهاد في تخفيف وطأة الاحتلال الفرنساوي بحيث تخف الشكوى منه ، وفي ذلك مصلحة العدو لا مصلحتنا . ولم نر انهم خطوا خطوة واحدة في سبيل المناضلة عن حقنا ، او تسهيل العمل لنا ، وهذا ما كان ينبغي ان نعلمه من قبل ، لان الاختلاف في اوروبة ، على سياسات لا علاقة لها في العالم الاسلامي ، لا يمنع الاتفاق علينا ، وعلى تقسيم بلادنا .

فمن الجهة السياسية حالة هذه المنطقة في جمود ، لا ابالغ ان قلت انها تسير الى الوراء . واما الجهة الادارية فهي مشابهة للاولى ، وأهم اسباب انحطاطها البداوة ، والمبالغة في اكرام البدو ، والاصغاء اليهم في كل شأن ، وهناك ايضا سبب اخر لا يقل عن هذا تأثيرا وهو الافلاس ودسائس المعلومين .

ولو لم نكن على ما وصفت من الضعف والخمول والكسل وتحجر العقول ، لكنا الان في دمشق على رقاب الخصوم . مع كل هذا قررنا الثبات والعمل ، ومعاونة الرجل على النهوض بنفسه وبنا ، فان رأينا بارقة امل مكثنا ، والا فناديكم أجمل للشمل .

أود حضور مؤتمركم في جنيف ، ولم أزل أترقب لذلك فرصة . ارجو على كل حال انا اول النادمين على رجوعي من برلين ، وكنت عدم اطلاع احد على كتابي هذا ، وسأكتب لكم في كيفية وقوع الحيف الجديد ومقاومتنا له ، ومن الان نبشركم ان طريق العراق من عمان اقرب مما تتصورون : خمس ساعات بالطيارة الى ضواحي بغداد ، وبالسيارة ٥٠ ساعة ، وهلم جرا .

والاصدقاء في حيرة وارتباك ، وقد حاولوا منذ مدة ادخالي في الحكومة فلم أقبل ، ولكن في هذين اليومين وعد سموه باتخاذ سياسة جديدة ، ولذلك لم يعد بعيدا قبولي وظيفة عنده او في الحكومة ، والاخوان يعتقدون ان رفيقنا عوني بك عبد الهادي لا يرجع ، وقد امر الامير بعدم رجوعه ، والله أعلم .

سلامي لجميع الاخوان والاصدقاء الاحباب ، ولكم مع وافر الشوق الف سلام واحترام ، أيد الله مساعيكم .

عمان ـ ٢٦ حزيران عادل ارسلان »

ونلاحظ في الرسائل السابقة ان الامير يتحدث عن السياسة وقضاياها حديث مطلع مشاهد ، ولكنه لا ينخدع بظواهر الامور ، بل يحاول تفسير هذه الظواهر ، وتكشف ما خلفها من حقائق ودوافع ، كما نلاحظ ان الامير بعيد النظر ، فهو لا يفتر بعاجل النصر والظفر ، بل يحسب حساب الغد القريب والغد البعيد ، ونلاحظ ايضا نزعة التشاؤم التي تبدو منه وقتا بعد اخر ، ولعل هذا كان المسوغ لاخيه شكيب في وصفه بأنه يألف التشاؤم .

ونلاحظ ان اسلوب الامير عادل جزل قوي واضح ، تشغله الفكرة عن الصورة في كثير من الاحيان ، وان كان يعمد الى شيء من المبالغة في بعض الاوقات .

وأعتقد ان هذه الرسائل وامثالها جديرة بأن يدور حولها تفسير وتعليق ممن عاشوا الربع الاول من هذا القرن ثم ما زالوا في الحياة ، وممن لهم عناية بتتبع تاريخنا العربي الحديث . وما زال لرسائل عادل ارسلان بقية نرجو ان نعود اليها في فرصة قادمة .

القاهرة **أحمد الشرباصي**